

نساء في الإسلام

* * *

نَسيبَةُ بنتُ كَعْب

رَضِيَ اللَّهُ عَنها

نجلاء شوقي حسن

نَسيبَةُ بنتُ كَعْب

رضِيَ اللّهُ عَنها

جَلسَتِ السَّيِّدةُ أمامَ شاشَةِ التّليفِزيون ، تُشاهِدُ حفلَ تَخريجِ دُفعَةٍ من ضُبّاطِ قُوّاتِنا المُسلّحة ، فى فَرحةٍ وسُرور .

إذ دخلتْ عليها ابنتُها حَنان ، قادِمَةً من المَدرَسة ، فقالتْ عِندَما رأتْ والِدتَها تُشاهِد التّليفزْيون :

ــ يا سَلام يا ماما ! تَجلِسينَ تُشاهِدينَ التّليفزيون ، وتَترُكينَ شُغلَ البَيْت .. أليسَ هذا ما تَقولينَه لى يا ماما ، عِندما أَترُكُ اسْتِذكارَ الدُّروس ، وأجلِسُ أمامَ التّليفِزْيون ؟

قالتْ أُمُّها وهى تَضحك : أَيَّتُها الشَّقِيَّة ، إنّنى

أحلُمُ بـاليَومِ الّذى يتخـرّجُ فيـه أَخـوكِ شَـريف مِثلَهم .

قـالتْ حَنـان : إنّ شَريف مـا يَـزالُ بالفِرقَـةِ الأولَى بالكُلّيَّةِ الحَربيَّة ، إذ التَحقَ بها بعدَ نَجاحِه فى الثّانويَّةِ العامّةِ منذُ شُهورٍ قَليلَة .

قالَت أُمُّهـا : إنّ سَعادَتى لا توصَف ، عندَمـا يطرُقُ البـاب ، وأَراهُ فـى بذلَتِـهِ العَسـكَريَّة ، وأقولُ له : تَفضَّل يا حَضرةَ الضّابط .

قالتْ حَنانُ فى سُـرور ، وهـى تَجلِسُ بِجوارِ والِدَتِهـا : وسـوفَ أكـونُ أنـا أُخـتَ حَضـرَةِ الضّابط ، الّذى يَحمى مِصرَ من شَرِّ الأعْداء .

ثمَّ قالتْ : هل تَعلمينَ يا ماما أنّى كنتُ أتَمنّى أن أكونَ ضابِطَـةً أحمِلُ السّـلاح ، وأُحـارِبُ

الأعداء ، وأحمى حُدودَ بِلادى ، وليسَ هناكَ ما يمنعُ أن أقودَ دَبّابَة ، أو أقودَ طائرَة ، مِثلَما يفعلُ الرِّجال . ولا شكَّ أنَّ هناك كَثيراتٍ مثلى يَتَمنَّينَ ذلك .

ضحِكتْ أُمُّها وقالتْ : كانَ ذلك مُمكِنا يا ابْنَتى ، لو أنَّ هناك نَقصًا فى عَددِ الرَّجال ، ولكنْ عِندَنا والحمدُ لِلّه ، الرِّجالُ القادِرونَ على حِمايَةِ وَطنِنا . والمَرأةُ فى الإسْلامِ قد جاهَدتْ وحارَبتْ فى مُختَلَفِ المَيادين ، ومِنها مَيْدانُ القِتال .

قالتْ حنانُ فى دَهشة : مَيدانُ القِتال ! تَقصِدينَ يا ماما أنَّها حَملتِ السَّلاحَ وقاتَلتِ الأعْداء ؟

قالتْ أمُّها : نعم ، إنَّ هناك حِكاياتٍ كَثيرة ، عن جِهادِ المَرأةِ فى الإسْلام .

قالتْ حنانُ فى لَهفَة : احكى لى يا ماما عن المَرأةِ الَّتى حَملتِ السِّلاح وقاتَلتِ الأَعداء .

قالتْ أمُّها : سأحكى لكِ يا حَنان ، عن نَسيبة بنتِ كَعب ـ رضِيَ اللّه عَنها ـ منذُ أن أسْلَمتْ إلى أن تُوفِّيَتْ .

سارَعتْ حَنانُ فأغلَقتْ جِهازَ التّليفِزيون ، واعتدَلت فى جلسَتِها ، وأنصَتتْ فى شَوق .

قالتْ أُمُّها : انتَشرتْ دَعوةُ الإسْلامِ فى مَدينَةِ يَثرِب ، وسارعَ كثيرٌ من أبْنائها إلى الإيمان بالرِّسالةِ الّتى نزلتْ على رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّه عَليهِ وسلّم ـ ، وخرجَ رِجالٌ كَثيرونَ لِلقاءِ

الرَّسولِ في مكّة ، وفي مُقدِّمَتِهم عاصِمُ بنُ زَيد ، وزَوجَتُه نَسيبةُ بنتُ كعب ، المُلقّبةُ بأُمِّ عِمارَة .

وهُناكَ في الشّعبِ - أي مَوطنِ القَبيلَةِ الكَبيرة - بايَعوا النّبيّ - صلّى اللّه عَليهِ وسلّم - على أن يَعبُدوا اللّهَ وحدَه ، لا يُشرِكونَ به شَيْئا ، وأن يَنصُروا دينَه ، وأن يَقولوا الحقَّ لا يَخشَوْن فيهِ لَومَةَ لائم .

وبعدَ عَودتِهم إلى يَثرب ، قامتْ نَسيبَةُ بدَورِها في خِدمَةِ الإسْلامِ خيرَ قِيام . فكانت تُبشِّرُ بالدّينِ الجَديدِ بينَ صَديقاتِها وجيرانِها .

وعندَما هاجرَ رسولُ اللّهِ - صلّى اللّه عَليهِ وسلّم - إلى يَثرب ، الّتي سُمِّيتْ بعدَ وُصولِهِ

إليهـا « المدينَـةَ الـمُنوَّرَة » ، ازْدادَ الـمُسلِمونَ فيها قُوَّة ، وأذِنَ اللّهُ للمُسلِمينَ أن يُدافِعـوا عـن أنفُسِـهم ، ويُحـارِبوا الّذيـن أخرَجوهـم مـن دِيارِهم .

وبـدأتْ نَسيبةُ بنـتُ كعـب ، تتـدَرَّبُ علـى التّمريضِ حتّى أتقَنَته ، كما تَمرَّنـت علـى حَمـلِ السِّلاح ، لتُدافِعَ عن نَفسِها إذا لَزِمَ الأمر .

وفـى غَـزوةِ بـدر ، خَـرجَ ابنُهـا عبدُ اللّـهِ مع المُقـاتلينَ تحـتَ رايـةِ الإسْـلام ، وكـان النّصـرُ للمُسلِمين . وبِهَذه الغَـزوةِ ، غَـزوةِ بَـدر ، فـرقَ اللّـهُ بـين الحقِّ والبـاطل ، فـأعزَّ الحـقَّ وأزْهـقَ البـاطِل . وصَـرع الـمُسلِمونَ أبطـالَ قُريـش ، وقَتلوا رُءوسَ الكُفرِ الّذين يُنكِـرونَ ديـنَ اللّـه ،

ويُريدونَ أن يُطفِئوا نورَه بأفْواهِهم .

وأخذَ كُفّارُ قُرَيش ، بعد هَزيمَتِهم فى بَدْر ، يُعدّونَ العُدَّةَ للثّأرِ من المُسلِمين . وتَقدَّمَ جَيشُهُم نحوَ المَدينَةِ المُنَوَّرة ، وخرجَ المُسلِمونَ للدِّفاعِ عن دينِهم ، وخرجَتْ نَسيبَةُ وراءَ الجَيش ، لتَسقى المُجاهِدين ، وتقومَ بأعمالِ التّمريض .

وبدَأت معرَكةُ أُحُد ، وانتَصرَ المُسلِمونَ فى جولَتِها الأولَى ، ثمَّ خالفَ الرُّماةُ أوامِرَ الرّسولِ بالثّباتِ فى مَواقِعِهم ، وانْشَغلوا بجَمعِ الغَنائِم ، فتَفرّقتْ جُموعُهم ، ولم يَثبُتْ فى مَكانِهِ إلاّ رَسولُ اللّه ـ صلّى اللّه عَليهِ وسلّم ـ وجَمعٌ من كِبارِ الصَّحابةِ لا يزيدُ عددُهُم على عَشرَةِ

أفْراد . وأحاطَ المُشرِكونَ بالرَّسولِ وصَحابَتِهِ من كلِّ جانب ، يُريدونَ القَضاءَ عَليهِم والخَلاصَ مِنهم .

وعندَما رأتْ نَسيبَةُ بنتُ كَعب ، مَوقِفَ المُسلِمينَ الحَرِج ، ألقَتِ السِّقاءَ من يَدِها ، واستَلَّت سَيْفا ، وانْدفعتْ تُدافِعُ عن رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّه عَليهِ وسلّم ـ وراحتْ تَرمى بالقَوس ، وتَتَلَقّى النّبلَ دونَه .

ويقولُ رسولُ اللّه ـ صلّى اللّه عَليهِ وسلّم ـ : ما التَفَتُّ يَمينًا أو شِمالا ، إلاّ وأنا أَراها تُقاتِلُ دونى .

وأقبلَ عليها أحدُ فُرسان قُرَيش ، شاهرًا سَيفَه ، وضرَبها بالسَّيف ، فتَلقَّت ضَربَتَهُ على

التّرسِ فلم تَصنَعْ بها شَيْئا ، وضربتْ قَوائمَ فَرَسِه بسَيفِها فعَقرَته . ووقعَ الفارِسُ على ظَهرِه . وعندَما حاولَ أن يَنهَض ، عاجَلَتْه نَسيبَةُ وابنُها بضَربَةٍ قَضتْ عليه .

وجُرحَ ابنُها عبدُ اللّهِ فى المَعرَكة ، وتدَفّقَ الدّمُ من جُرحِه ، فأقبلتْ نَسيبَةُ وضمَّدتْ جُرحَ ابنِها ، والنّبىّ ـ صلّى اللّه عَليهِ وسلّم ـ واقِفٌ يَنظُرُ إلَيْها . وبعدَ أن انتهَتْ من عِلاجِ ابنِها قالتْ لَه :

ـ انهَضْ وحارِب القَوم .

فقالَ لها النّبىُّ ـ صلّى اللّه عَليهِ وسلّم ـ :

ـ ومن يُطيقُ ما تُطيقينَ يا أُمَّ عِمارَة ؟

وظهرَ الرَّجلُ الّذى ضرَبَ ابنَها عبدَ اللّهِ

وأصابَه ، فأشارَ إليه رسولُ اللّه ، وقالَ لِنَسيبَة :

ـ هذا ضارِبُ ابنِك .

وتصدَّت نَسيبَةُ للرَّجل ، وضرَبتْ ساقَه فبَرَك ، ثمَّ طَعنتِ الرَّجلَ طَعنةً كانتِ القاضِيَة .

فتبَسَّم رَسولُ اللّه ـ صلّى اللّه عَليهِ وسلّم ـ وقال :

ـ الحمدُ لِلّه الّذى أظفرَكِ بعَدُوِّك ، وأراكِ ثأرَكِ بعَينِك .

وهجمَ أحدُ المُشرِكينَ على رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّه عَليهِ وسلّم ـ يُريدُ قَتلَه ، فوقفَتْ له نَسيبَةُ ومُصعَبُ بنُ عُمَير ، فقتلَ المُشرِكُ مُصعبَ بنَ عُمَير ، فوقَفتْ نَسيبَةُ في وَجهِه ، فضَربَها ضَربةً هائلَة ، وأصابَها في عُنُقِها إصابَةً شَديدَة .

ولكِنّها لم تَضعُف ، بل راحتْ تُوجِّه له الضَّرَبات . ونادَى رسولُ اللّه ابنَها عبدَ اللّهِ وهو يُشيرُ له :

ـ أُمُّك .. أُمُّك .. اعصِبْ جُرحَها ، باركَ اللّه عليكُم أهلَ بَيت .

وسمِعتْ نَسيبَةُ دُعاءَ رَسولِ اللّه ، فقالتْ مُخاطِبَةً إيّاهُ والدِّماءُ تَنزِفُ مِنها :

ـ ادعُ لنا اللّهَ أن نُرافِقَكَ فى الجَنّة .

فأجابَها رسولُ اللّه ـ صلّى اللّه عَليهِ وسلّم ـ :

ـ اللّهمَّ اجعَلهُم رُفَقائى فى الجَنّة .

وهَتفتْ نَسيبَةُ حِينئذ : ما أُبالى ما أصابَنى مِنَ الدُّنيا .

* * *

وكبِرَ ابنُها حَبيب ، وأرسَلَهُ الخَليفَةُ أبو بَكرٍ الصِّديقُ إلى مُسيلِمَةَ الكذّابِ برِسالَةٍ منه . لكِنَّ مُسيلِمَةَ لم يَرعَ حُرمَةَ الرُّسُل ، بل قَبضَ على حَبيبٍ وقَتلَه . وعلِمتْ نَسيبَةُ بما حدَثَ من مُسَيْلِمَة ، فنذرَتْ لِلّه أن تَشهَدَ مَقتَلَه ، وتُشارِكَ فيه .

وسارَ جَيشُ خَليفَةِ رَسولِ اللّه إلى مُسيلِمَة ، وفيه ابنُ نَسيبَةَ عبدُ اللّه بنُ زيد . وخرجَت نَسيبَةُ مع الجَيشِ فى هَودَج ، ولها من العُمرِ ستّونَ عاما .

وقامَتِ الحربُ بينَ المُسلِمينَ ومُسَيلِمة ، وفى بدايَةِ المَعركة ، انْهزَمَ المُسلِمون ، وثبتَ القائدُ العَظيمُ خالِدُ بنُ الوَليد . وصاحَ فى المُسلِمين :

وامُحمَّداه ! . وارتَفعَ لِواءُ رَسولِ اللّـه مـرّةً أُخرَى ، وأقبلَ الصَّحابةُ منَ المُهاجِرينَ والأنصـارِ يُقاتِلونَ طلبًا للنّصرِ أو الشّهادَة .

ورغمَ سنِّ أمِّ عِمارَةَ المُتقدِّمَة ، فقدْ سَحبتْ سَيفًا وشاركتْ في الهُجومِ على مُسيلِمَةَ وجَيشِهِ ، مع كَوكَبةٍ منَ الأنصارِ فيهم ابنُها عبدُ اللّه . وتذكّرتْ جِهادَها وكِفاحَها مع رَسولِ اللّه - صلّى اللّه عَليهِ وسلّم - ، وتذكّرت دُعاءَ رَسولِ اللّهِ لها ولأَهلِها بأنّهم رِفاقُهُ في الجَنّة ، فهَجمتْ لا تُبالى ، وأصابَها اثنا عَشَر جُرحًا فلم تَهتَمّ ، وقُطعتْ ذِراعُها من شِدّةِ الهُجوم فلم تَتوقّف .

ووصلتِ الكَوكَبةُ إلى مُسيلِمَة ، ورَفعَ عبدُ

اللّهِ سيفَه ، وقضَى بضَربَتِه الهائِلَةِ على مُسيلِمَةَ الكذّاب .

وعادَتْ أمُّ عِمارَةَ بذِراعٍ واحِدَة ، لكنّها عادَت بنَفسٍ راضِيَة ، لأنَّ اللّهَ ــ سبحانَهُ وتَعالى ــ صدَقَ وَعدَه ، وأعزَّ جُندَه ، وهَزم الفِئَةَ المُرتَدَّة .

عادتْ راضِيَة ، وبَقِيتْ رَمزًا لِكفاحِ المُسلِمين ، حتّى انتقلَتْ إلى ربِّها راضِيَةً مَرضِيَّة .